إثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

بريد الجمعة

الجمعة ■ ١١ يناير ٢٠٠٢ ■

يكتبه : عبدالوهاب مطاوع

الهواجس المؤلمة

أنا رجل أبلغ من العمر ٤٤ عاما، وأعمل بوظيفة محترمة. وقد أكرمني ربي برضا أبي وأمي وبعلاقات طيبة مع الأهل والأصدقاء، وكل من أتعامل معهم لأنني أحب الخير ولا أتوانى عن مساعدتهم وأعامل الآخرين بكل احترام

وقد تزوجت منذ اثني عشر عاما من فتاة أحببتها سنوات طويلة قبل الزواج دون أن أعطي ذلك لها أو لغيرها وتكتمت مشاعري تجاهها الى ان يحين الوقت المناسب للتقدم لها. وحين سمحت لي الظروف بذلك تقدمت إليها وخطبتها وتزوجتها برغم الكثير من الصعاب بسبب بعض الظروف المعاكسة وعشنا سنوات جميلة هادئة سعيدة، إذ ما أجمل ان يتزوج الانسان من فتاة يحبها وتكون هذه الفتاة عاقلة ورزينة ومتعلمة ومن أسرة كريمة

ولقد أكرمني الله بالتوفيق في عملي فتوفر لي قدر من المال وفكرت في أن استغله فيما يسعد زوجتي ويكون إضافة لنا تفيد أبناءنا في المستقبل، فأنشأت مشروعا صغيرا تديره زوجتي لانه يتفق مع مؤهلاتها الدراسية وسجلته باسمها ووقفت فيه الى جانبها حتى نجح العمل نجاحا أسعدها وأسعدني معها وازدادت علاقة الحب بيننا عمقا.

وكانت زوجتي بحكم هذا المشروع تتعامل مع كثيرين من العملاء، وتعرضت بطبيعة الحال في بعض الاحيان كامرأة للمضايقات من بعض العملاء.. لكنها بقوة شخصيتها وذكائها وأدبها كانت تتخطى دائما هذه المضايقات وتجبر الجميع على احترامها.

ثم شاءت الأقدار أن يتردد على مقر عملها أحد الشباب مندوبا عن شركته، فوجدت من زوجتي اهتماما غير عادي به وبالعرض الذي تقدم به ولم يتم الاتفاق مع شركته على العمل المطلوب، ولكنه استمر بالرغم من ذلك في التردد على مقر عمل زوجتي، وهنا شعرت بالضيق وعدم الارتياح واظهرت لزوجتي هذا الضيق. واعترضت صراحة على تردده على العمل دون مبرر، فقالت لي إنني استطيع إذا أردت أن أطلب منه عدم الحضور، لكني رفضت ذلك مؤكدا لها أنني إذا فعلت ما تقترحه فان معناه هو عدم الثقة فيها وان عليها ان تنهي هي تردده بأي شكل، لكنها لم تفعل متعللة بصعوبة اظهار الجفاء لإنسان يتعامل معها بكل احترام، فضلا عن أنها لا تريد ان تغلق باب التعامل مع شركته.. ولا تريد أيضا ان تحرم من بعض الآراء والمقترحات التي يبديها ويمكن أن تفيد العمل.

وأمام كلماتها الهادئة الواثقة راجعت نفسي في احتمال ان أكون مخطئا في رأيي بسبب طبيعتي المحافظة، أو ربما بسبب شعوري بشيء من الغيرة التي يجب ألا استسلم لها حتى لا أكون عائقا أمام نجاح زوجتي... وأقنعت نفسي بأنه من الافضل ان أوطد علاقتي به حتى يفهم من يلاحظ كثرة تردده على العمل أنه صديقي، وبذلك أمنع الأقاويل عن زوجتي.. وقد كان ذلك.

وبعد فترة لا ادري طولها أصبحت زوجتي اكثر عصبية فالتمست لها العذر بإرهاق العمل وضغوطه، ثم بدأت تنفر مني في أحيان كثيرة... وإذا غضبت منها لشيء، لا تبالي بغضبي وهي التي كانت اذا حدث بيننا شيء، من سوء التفاهم تتودد إلي وتنهيه في نفس اليوم، ولم أستطع تفسير ذلك برغم انني كنت أشعر بحزن عميق بداخلي، وفي لحظات قربها مني كانت تستطيع أن تمحي الأثر السيئ لعصبيتها ونفورها. مع أن هذه اللحظات تباعدت بيننا كثيرا في حين ازدادت مساحة الخلافات حول أشياء تافهة لا أذكرها لانها كانت فيما يبدو تعبيرا عما أصاب كلا منا من تغيير حتى أصبحت هذه الخلافات ظاهرة امام ابنائنا على غير عادتنا

واستمرت الحياة على هذا النحو أياما هادئة وأياما عصبية حتى حدث موقف أيقظني من غيبوبتي. ذلك انني فوجئت بها ذات مرة تخبرني انها ذهبت مع هذا الشاب بسيارته لمتابعة عمل يخصها في مدينة قريبة من مدينتنا. ووجدتني في لحظة خاطفة استرجع كل الاحداث الماضية المتعلقة بعلاقة هذا الشخص بها، والتي توحي بأن اهتمامها به لم يكن عاديا وانه لم يكن مجرد صديق عمل مثل بقية الأصدقاء. والمعارف (إذا جاز استعمال لفظ الصداقة هنا) وانه شخص تسعد به ولوجوده وتختلق الاسباب لكي يستمر تردده عليها في عملها سواء بالحديث عن مشروعات مشتركة لم تتم أو بطلب مشورته في بعض أمور عملها. وواجهتها بذلك وكان رد فعلها هو الإنكار التام بقوة وعصبية مع الإحساس بالاهانة، وحاولت إقناعي بأن الامور أكثر بساطة مما اتصور وراحت تلومني على انني لم أكن واضحا في طلب قطع علاقتها به في البداية، مع انني قد اظهرت لها عدم ارتياحي وغضبي في بداية العلاقة، لكنه لثقتي فيها صدقت كلامها عن بساطة هذه العلاقة ولم أتخذ موقفا كان يجب أن أتخذه ولكنها أصرت على أنه ليس في الأمر أي شيء مشين، وانها تتفهم غضبي ولم اقتنع بحديثها تماما، ولكني حاولت خداع نفسي بتصديقه لان ذلك كان الاكثر راحة بالنسبة لي واعتبرت الامر مجرد عدم اتزان في التصرف، وان رغبتها في النجاح كانت أقوى من الاعتبارات الاخرى وانتهى الموقف تاركا في نفسي جرحا غائرا، لكني لم أدع ذلك يؤثر على علاقتي بها..

وامتنعت زوجتي عن الذهاب لعملها فترة حتى لاتقابل هذا الشخص واصبحت تديره بالتليفون وأتولى أنا بعض الأمور.. وحين وجدت أنا تساؤلا من ذلك الشاب عن سبب انقطاعها عن العمل أفهمته بتعبها ولكيلا أثير في نفسه اية تساؤلات حول وجود خلل في علاقتي بزوجتي بسببه، فقد استمررت في علاقتي به بشكل عادي حتى لاتنتاثر الاقاويل والشائعات، الى ان أنهت شركته العمل في مدينتنا وظل بعد ذلك يتصل بي كل فترة، واتصل به من حين لآخر وكأن شيئا لم يحدث، لكني كنت اتعمد ان يغلف البرود كلماتي واختفت عبارات المجاملة حتى انقطع الاتصال بيننا.

وبعد حوالي عامين من ذلك واثر اتصال تليفوني منه فوجئت بزوجتي تعرض على فكرة التعاون مع هذا الشخص في أحد المشروعات التي كانت تنفذها، ووجدت نفسي أنفجر فيها هذه المرة رافضا ومتسائلا عما اذا كانت تريد إعادة العلاقة معه أم ماذا .. وتكهرب الجو وأكدت لي أنها فكرت في هذا الاقتراح بحسن نية لأن هدفها هو نجاح المشروع ولأنه ليس لديها شيء تتخفى به، ولم أقتنع بذلك وأصبح ما يثور في داخلي كل فترة تساؤل أو مجموعة تساؤلات أظل أسيرا لها حتى اسأل زوجتي عنها وتتجدد الصدامات.

وخلال هذه الصدامات أفلتت منها بعض التعبيرات العفوية التي زادت شكوكي وتفاعلت هذه الشكوك داخلي حتى حاولت الانتحار ذات مرة ولكن الله سلم وأصبحت حياتنا بعد ذلك متوترة دائما، وازداد البعد بيننا وغابت السعادة عن حياتنا، وبالرغم من ان الامور هادئة الآن بيننا - اقصد فاترة - إلا أن التساؤلات تهاجمني يوميا حول ما حدث.. فكيف أصل للحقيقة؟

وهل من مصلحتي معرفتها؟ مع أني لا استطيع خداع نفسي وأؤمن بأن الحقيقة المرة افضل من الحيرة والشكوك.

إن الامر اذا كان نزوة وانتهت فكلنا نخطئ، ويمكن التجاوز عن هذه السقطة بالحب وبإدراك اننا بشر وبأنني ساهمت ولو بأي قدر في عدم منع هذا الخطأ وإذا كان حبا قائما (ولا أظنه كذلك) فيمكنني طلاقها وتنتهي القصة ونتحمل أنا وأطفالي إرادة القدر. كما انه يمكن استمرار وجودها معي شكليا من اجل الاولاد كأخت وأم وليس كزوجة وشريكة حياتي.. فماذا أفعل.. وكيف أحسم أمري؟!

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

التساهل في البدايات يورث جحيم الشك في النهايات، هذه هي خلاصة المحنة التي تهدد حياتك العائلية وسلامك النفسي الآن.. لهذا فلقد كان الأحرى بك ألا تتردد في حسم هذه الصلة بين زوجتك وبين هذا الشاب في بدايتها المبكرة وبلا تحسس لما يمكن ان يثيره ذلك من تساؤلات لديها أو لدى الغير، إذ انه يكفي ان يستشعر الزوج أو الزوجة «القلق» لصلة تجمع شريك الحياة بطرف آخر لا مبرر لوجوده أصلا في أفقه، لكي يكون ذلك وحده سببا عادلا ومقنعا لقطع هذه الصلة بل انه من واجب الشريك ان يتدخل لإبعاد المتطفلين عن شريكه بدافع الغيرة الايجابية المطلوبة لحمايته من الريب والظنون أو من الإساءة لنفسه بحسن نية.. وليس هناك ما يدعو لاستشعار الخجل من هذه الغيرة أو لإنكارها.. فهي إحساس إنساني طبيعي يحفظ اذا مورس باعتدال الطرف الآخر من التعرض للاغراء ومن الانزلاق الى الشراك الخداعية المحيطة به، ولا يعني أبدا انعدام الثقة في النفس أو الشك في إخلاص الطرف الآخر وأخلاقياته، وإنما يعني فقط «القلق الصحي» المعتدل خوفا من ضياع المحبوب.. او تعرضه للمهالك.

لهذا فانه لم تكن هناك اية ضرورة «للتجمل» في إظهار ضيقك بصلة زوجتك بهذا الشاب.. ولا لمحاولة اكتساب صداقته للإيهام بأن ما يربطه بكم هو علاقة عائلية واجتماعية وليس اهتماما شخصيا بالزوجة.

ومن واجب شريك الحياة أن يتفهم هذا القلق.. ويستجيب لما يتطلبه من تجنب كل ما يثير هواجس شريكه وظنونه حتى ولو لم يكن لها أي ظل من الحقيقة، ولو أنصف نفسه لسعد بهذا القلق واعتبره دليلا متجددا على الحب والنخوة والرغبة الدائمة في الانفراد بجماع مشاعر شريك الحياة واهتمامه، وبدون أي تعارض مع الثقة المفترضة في وفائه وأخلاقياته وقيمه.. لأن الامر لا يتعلق هنا بالثقة وإنما بسد الذرائع.. والبعد عن الظنون.

والكاتب المسرحي الأمريكي تينسي وليامز يقول لنا إنه لا يوجد عذاب على وجه الأرض يقارن بعذاب الرجل حين ينهشه الشك في وفاء امرأته له.. ولأن الامر كذلك فلابد لك يا سيدي من أن تحسم كل التساؤلات التي تمور في أعماقك الآن وتخرج من بحر الحيرة الى شاطيء آمن، لكي تستقيم لك حياتك وتعفي نفسك وزوجتك من هذا العذاب.

ولربما يعينك على ذلك أن تسلم بأن الانسان «تاريخ» وسياق عام من السلوكيات والأخلاقيات والقيم، وليس مجرد موقف طارئ من مواقف الحياة، وبالتالي فإن الحكم العادل عليه لابد أن يضع في الاعتبار تقييم هذا التاريخ كله.. ولا يكتفي بما ثار الجدل مؤخرا حوله..

وأيا كان الشاطيء الذي سوف ترسو فيه سفينتك فإن من واجبك ان ترفض بصرامة اية مقترحات أو افكار لتجديد تلك الصلة التي أثارت كل هذه الزوبعة، مهما تكن مبرراتها أو «أرباحها» المالية المتوقعة.

إذ ماذا يفيد أن يجني الإنسان بعض الربح المادي ويخسر سعادته وأمانه وراحة قلبه وضميره.

وختاما فإني اجيب على تساؤلك الحائر المحذوف من رسالتك، والذي يقض مضجعك الآن.. بالاشارة الى حديث شريف رواه الشيخان وأبو داود والترمذي ويقول: إن الله قد تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لم تتكلم أو تعمل به.

واكتفي بهذا القدر.. معتمدا على فطنتك.. والسلام.